ذكر خبر هذا الخليج وحفره وأسمائه

قال المقريزى 1: هو خليج قديم، أول من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر، وهو الذى قدم السيد إبراهيم عليه السلام فى أيامه إلى مصر، وأخذ منه السيدة سارة، ورأى من النقمة بسببها ما رأى، فردها مكرمة وأخدمها هاجر أم إسماعيل عليه السلام، فلما خرج إبراهيم[1] عليه السلام بهاجر وولدها إسماعيل إلى مكة بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها فى مكان جدب وتستعينه، فأمر بحفر هذا الخليج متصلا إلى السويس ببحر القلزم، وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جدة، فأحيا بلد الحجاز.

ويقال إن الفراعنة سبعة هذا أولهم، ويقال له فرعون إبراهيم، ثم جدد حفره أندرومانوس[2] أحد ملوك الروم، وسارت فيه السفن، وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة سنة، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص لما فتح مصر أمر بتجديد حفره، فأقام فى حفره ستة أشهر، وجرت فيه السفن تحمل الميرة 2 إلى الحجاز، فسمى خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب.

ولم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى السويس، ولم يزل النيل يصب فى

---

(١) فى ب، جـ: إسماعيل.

(٢) كذا بالنسخ الخطية، وفى الخطط للمقريزى: أندروبانوس.

---

1 الخطط (٢/ ١٤١).

2 الميرة: الطعام ونحوه.

بحر القلزم، إلى أن أمر الخليفة المنصور ثانى خلفاء بنى العباس بطمه فى سنة خمسين ومائة، وبقى منه ما هو موجود الآن، وصار يسمى خليج القاهرة، وخليج اللؤلؤة؛ لأنه كان عليه منظرة تسمى اللؤلؤة من متنزهات الخلفاء الفاطميين، وكانت قصرا عظيما من أعظم القصور زخرفة، وكانت بالقرب من باب القنطرة، بناها العزيز بالله، وهدمها الحاكم، فأعاد ابنه الظاهر بناءها.

قال المقريزى: والعامة تسميه اليوم خليج الحاكمى، وقال ابن سعيد: قد دخلت (فى الخليج الذى) [1] بين القاهرة ومصر، ومعظم عمارته مما يلى القاهرة، وهو ضيق، عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمارة، وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل.

قال: وفى ذلك أقول:

لا تركبن فى خليج مصر إلا إذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه من عالم كلهم طغام
صنفان للحرب قد أظلا سلاح ما بينهم كلام
يا سيد لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى عليه من فضله لثام
والسرج قد (بدت عليه) [2] منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمبانى [3] عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا هناك أثمارها الأنام

(١) ما بين القوسين ليس بالأصل.
(٢) جاء مكان ما بين القوسين فى ب: بددت.
(٣) فى الأصل: والبانى.

وقال ابن الساعاتى 1 فيه:

قف بالخليج فإنه أسمى بقاع الأرض ربعا
رقصت به الأغصان إذ ثنى الحمام عليه سجعا
منعطف كالأديم ذعرا حين ربع ضاق ذرعا
وإذا تمر به الصبا فاطرب لسيف عاد درعا
متباريات سفينه خفضا براكبه ورفعا
مثل العقارب أقبلت فوق الأراقم 2 وهى تسعى

وقال الأسعد بن مماتى:

خليج كالحسام له صقال ولكن فيه للرامى مسره
رأيت به الصغار تجيد عوما كأنهم نجوم فى مجره

وقال ابن عبد الحكم 3: حدثنا عبد الله بن صالح أو غيره، عن الليث بن سعد أن الناس أصابهم بالمدينة جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه. فقال عمر: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهى كثير الخير والطعام، وقد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم، إذا حفر خليج من نيلها حتى يسير فى البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ فيه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك وتشاوروا حتى يعتدل فيه رأيكم. فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر، فثقل ذلك عليهم، وقالوا:

---

1 هو أبو الحسن بهاء الدين على بن محمد بن رستم، المعروف بابن الساعاتى، شاعر مشهور، خراسانى الأصل، ولد ونشأ فى دمشق، وكان أبوه يعمل الساعات بها. توفى سنة ٦٠٤ هـ.

2 الأراقم: جمع الأرقم، وهو ذكر الحيات أو أخبثها.

3 فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٨٣.

نتخوف أن يدخل فى هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن نعظم ذلك على أمير المؤمنين، ونقول: هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلا. فرجع عمرو بذلك إلى عمر، فضحك حين رآه، وقال: والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أمرتهم بما أمرت به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم، وقالوا: يدخل [1] فى هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن نعظم ذلك على أمير المؤمنين، ونقول له: إن هذا أمر لا يعتدل (ولا يكون) [2] ولا نجد إليه سبيلا. فعجب عمرو من قول عمر، وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت. فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه. فانصرف عمرو، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط، الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة. فنفع الله بذلك أهل الحرمين، وسمى خليج أمير المؤمنين، ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعته الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل فانقطع، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

قال ابن عبد الحكم 1: وحدثنا أخى عبد الحكم بن عبد الملك [3] بن عبد الحكم، حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن محمد بن عبد الرحمن، حسبته عن عروة، أن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص حين قدم عليه: قد عرفت الذى أصاب العرب، وليس جند من الأجناد أرجى عندى أنه [4] يغيث الله بهم أهل الحجاز من

---

(١) زاد بعد هذه اللفظة فى ب، جـ: على هذا.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) كذا فى النسخ المخطوطة. وفى فتوح مصر: عبد الله. وهو الصواب.

(٤) كذا فى النسخ المخطوطة. وفى فتوح مصر: أن.

---

1 فتوح مصر، ص ٢٨٥.

جندك، فإن استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله. فقال عمرو: قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركته التجار، فإن شئت أن تحفره فتنشئ فيه سفنا تحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته. قال عمر: نعم. فحفره عمرو وعالجه وجعل فيه السفن.

حدثنا 1 أبى، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن [1] أبى نجيح، عن أبيه: أن رجلا أتى عمرو بن العاص من قبط مصر، فقال: أرأيت إن دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تأتى [2] إلى مكة والمدينة، أتضع عنى الجزية وعن أهل بيتى ؟ قال: نعم. فكتب إلى عمر، فكتب إليه: أن افعل.

قال ابن زولاق: وليس بمصر خليج إسلامى غيره، قال: وكان خارج البحر يركبون فيه من ساحل تنيس، يسيرون فيه ثم ينتقلون بالقلزم إلى المراكب الكبار.

قال المقريزى: وفى سنة ثمان وثلاثين وستمائة شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى بناء القنطرة التى على الخليج الكبير المجاور لبستان الخشاب، التى تعرف اليوم بقنطرة السد.

قال فى موضع آخر: ولما تولى الظاهر بيبرس عمل القناطر المعروفة بقناطر السباع على الخليج الكبير.

وقال المعمار فى سد الخليج:

سمعت يوما سد مصر يقل النيل وافى زائرا عندي

وكان هذا خبرا صادقا فرحت أرويه عن السدى

(١) هذه اللفظة ليست فى ب، جـ.

(٢) فى ب، جـ: تنتهى.

1 فتوح مصر، ص ٢٨٧.

وقال صاحبنا الشهاب المنصورى فى الخليج:

(جل بعينيك تلق فوق الخليج) [1] **زبدا رابيا كقطن حليج** [2]

أو شذورا من أبيض الغيم زانت زرقة فى السماء ذات البروج

وقال أبو عبد الله بن الحجاج:

نثر الورد بالخليج وقد درجه بالهبوب مر الرياح

مثل درع الكمى مزقها الطعـ ـن فسالت بها دماء الجراح

وقال الحسن بن على بن وكيع 1:

يا حبذا والخليج مضطرب والريح تثنى ذوائب القصب

كأنه والرياح تعطفها صف قنا سندسية العذب

والحق فى حلة ممسكة قد طرزتها البروق بالذهب

وقال البدر بن الحاجب:

لله در [3] **خليج تحت قنطرة بيضاء قد أحكمت عقدا على الطرق**

كأنه وهو سار تحتها فرس يوم الرهان له سرج من الورق

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن الساعاتى فى يوم كسر الخليج:

إن يوم الخليج يوم من الحسـ ـن البديع المرئى والمسموع

---

(١) فى ب: حلق فوق الخليج تلق بعينيك.

(٢) فى الأصل، ب: خليج.

(٢٣) فى ب، جـ: حسن.

---

1 هو أبو محمد الحسن بن على الضبى التنيسى، المعروف بابن وكيع، شاعر مجيد، أصله من بغداد، ومولده ووفاته فى تنيس بمصر، كانت فى لسانه عجمة. توفى سنة ٤٢٢ هـ.

obeikandl.com

كم لديه من ليث غاب صؤول ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السد عزه قبل أن يمـ ـلكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فيض الدموع

وقال بعضهم:

إن كان مد النيل قد سركم وقد بلغتم فى الخليج المنى
فالنيل من بعدكم أدمعى نعم وما المفرد إلا أنا

وقال البرهان إبراهيم بن المزكى [1] نصر بن ظافر بن هلال الحموى فى (المفرد المبشر بوفاء النيل):

الخير بالفرد [2] مجموع ووتره بالخصب مشفوع
وخفض عيش الناس من أجله به لواء الحمد مرفوع
مسند ما يرسل من ربه عنه حديث المحل مقطوع

أورد اليغمورى فى تذكرته قال: وأنشدنى الأديب البارع ناصر الدين حسن بن شاور بن طرخان بن النقيب الكنانى لنفسه:

ليهن أحبابى (نيلا وفي) [3] ومفردا وافى به مؤذنا
ما النيل إلا أدمعى بعدكم كلا ولا المفرد إلا أنا

(١) فى ب، جـ: الذكى.
(٢) فى ب، جـ: بالمفرد.
(٣) فى ب: نيل ووفا. وفى جـ: نيل وفا.